﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنفال: 49]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

اقترانُ تزيينِ الشَّيطانِ، بإرجافِ المنافقينَ، لا يضعفُ المسلمينَ

لمّا استوفى ما كانَ يقطعُ بهِ المشركونَ من قوَّتِهم وضعفِ المسلمين، ممّا هو من أنفسِهم، وممّا هو من تزيينِ الشَّيطانِ؛ أبدلَ منهُ ما كان يقطعُ بهِ أهلُ الجهلِ باللهِ من هزيمةِ المسلمينَ، لقلَّتِهم عددًا وعُدَّةً ولكثرةِ عددِ المشركين، وعدَّتهم في حقِّهم، فقال: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾[1]، وأيضًا: لمّا ذكر اللهُ تعالى أنَّ الشَّيطانَ زيَّن للمشركينَ أعمالهم؛ بيَّن أنَّ قولَ المنافقين، وقع في وقتِ تزيين الشَّيطانِ للإرجافِ بفئةِ المسلمين، فيكونُ قد اجتمع عليهم تزيينُ الشَّيطانِ للمشركين أعمالَهم، وقولُ المنافقين ما قالوه، فالمناسبةُ في ذكرِ هذه الآيةِ، عقبَ آيةِ تزيين الشَّيطانِ، هيَ أنَّ كِلا الخَبَرَيْنِ يَتَضَمَّنُ قوَّةَ جَيْشِ المُشْرِكينَ، وضَعْفَ جَيْشِ المُسْلِمينَ، ويَقينَ أولياءِ الشَّيطان، بأنَّ النَّصْرَ سَيَكونُ لِلْمُشْرِكينَ على المُسْلِمينَ، فأفادت (إذ) الاقترانَ الزَّمنيَّ بين التَّزيين وقول المنافقين، فيكونُ قَوْلُهم واقِعًا في وقْتِ تَزْيينِ الشَّيطانِ أعْمالَ المُشْرِكينَ، ليزيدوا من إضعافِ المسلمين، بما توهَّموهُ، من قلَّة تدبيرِ المسلمين وغرورِهم[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَّرَضٌ﴾: يدورُ معنى لفظِ (مرض)، على ما يَخرجُ بهِ الإنسانُ أو الحيوانُ عن حدِّ الصِّحَّةِ في أيِّ شيءٍ كان، فهو خروجٌ عن الاعتدالِ الخاصِّ بالإنسانِ، وذلك ضربان: مَرَضٌ جسميٌّ، والآخرُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/300.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/37.

عبارةٌ عن الرَّذائلِ كالجهلِ، والجبنِ، والبخلِ، والنِّفاقِ، وغيرِها من الرَّذائلِ الخلقيَّةِ، والمرضُ في القلبِ كلِّه هو الشَّكُّ، وهو مشهورٌ في كلامِ العربِ[1]، والمقصودُ بالمرضِ القلبيِّ هو الشَّكُّ، عبادةُ اللّه على حرفٍ، وعدمُ رسوخِ العقيدةِ في الوجدانِ نظرًا للتَّذبذبِ في الإيمانِ والميلِ إلى الكفرانِ.

2) ﴿غَرَّ﴾: الغَرَرُ: هو الخطرُ الَّذي لا يُدرى أيكونُ أم لا، والغِرُّ: الَّذي لا يَفْطُنُ للشَّرِّ، ويَغْفُلُ عنه، ومنه اغتَرَرْتُه واستَغْرَرْتُهُ، أيْ: أتيتُهُ على غِرّةٍ، أي: على غَفْلَةٍ، ورجلٌ غِرٌّ؛ إذا كان ينخدعُ لمن خادعَهُ، ويقالُ: غَرَّ فلانٌ فلانًا، أي: عَرَّضَهُ للهَلَكَةِ والبَوارِ، أو بمعنى نقصه من الغِرارِ، وهو النُّقْصانُ، أو المعنى: فعَلَ به ما يُشْبِهُ القَتْلَ والذَّبْحَ بغِرارِ الشَّفْرَةِ، أي: حدُّها، والغرورُ كلُّ ما يَغُرُّ الإنسانَ من مالٍ وجاهٍ، وشهوةٍ وشيطانٍ، كما يطلقُ الغرورُ على الإيقاعِ في المضرَّةِ، بإيهامِ المنفعةِ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إنكارُ المعاندين غـرورَ المؤمنين بدينِهم، لكن من توكَّلَ على اللهِ كفاهُ

واذكرْ - يارسول اللّه - وقتَ أن قال أهلُ النِّفاقِ والَّذين في قلوبهم شكٌّ في الإسلام، ممَّن لم يصحَّ يقينهم، لمّا رأوا قلَّةَ المسلمينَ، وكثرةَ عدوِّهم: خدعَ هؤلاءِ المسلمينَ دينُهم، ولم يدرك هؤلاءِ المنافقونَ ومن مَعهم أنَّه من يتوكَّلُ على اللّهِ، ويثقُ بوعدِهِ، فإنَّ اللّه لن يخذلَهُ؛ لأنَّ اللّه عزيزٌ لا يغلبهُ شيءٌ، ولا يعجزهُ أمرٌ، حكيمٌ في تدبيرِهِ وصنعِهِ[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ لفظِ ﴿إِذْ﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾، تفيدُ ﴿إِذْ﴾ هنا عظمَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (مرض)، وينظر: الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/99، والماورديّ، النّكت والعيون: 2/326.

(2) الرّاغب، المفردات، ص: 270.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 13/12 - 15، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 183.

تعظيمُ الظَّرفِ إشعارٌ بعظمِ مظروفِه

القولِ الَّذي قالَهُ المنافقونَ، والَّذين في قلوبهم مرضٌ، للتَّنبيهِ على عظمِ قولِهم في ذلكَ الوقتِ بحيثُ يستحقُّ أن يكونَ القولُ الَّذي قالوهُ مثلًا للذِّكرى والتَّدبُّر والعظةِ، فإنَّ تعظيمَ الظَّرفِ، إشعارٌ بعظمِ مظروفِه، والكلامُ المصدَّرُ بلفظِ (إذ)، موجَّهٌ إلى مخاطَبٍ معيَّنٍ، أو مخاطبينَ مُعيَّنينَ لِلتَّذكيرِ بأمرٍ مُهمٍّ قدْ حَصَل.

بلاغةُ التَّعريضِ بذكرِ قولِ المنافقينَ:

تعظيمُ قدرِ الدِّينِ عندَ المؤمنينَ؛ إذ بذلوا أنفسَهم لأجلِه

ذُكِرَ قولُ المنافقينَ؛ للتَّعريضِ بعظمِ منزلةِ الدّين وخطيرِ قدرِه في قلوبِ المؤمنين الذين قاتلوا مع رسولِ اللّهِ ﷺ وذلك أنَّهم بذلوا أنفسَهم للهلاكِ؛ لخروجِهم لقتالِ عدوِّهم مع ضعفِهم وقلَّةِ عددِهم، وكثرةِ أعدائِهم وقوَّتِهم؛ رجاءَ أن يسلمَ لهم دينُهم، فذكرهُ اللّهُ تعالى لنا لنعرفَ عظيمَ محلِّ الدّين في قلوبهم؛ ليكونَ محلُّ الدّين في قلوبنا على مثل قدرِهِ في قلوبِ صحابةِ رسولِ اللّهِ [1] ﷺ.

دلالةُ لازمِ الفائدةِ من قولِ المنافقين:

قد ينتصرُ أهلُ الإيمانِ - وإن كانوا قلَّةً - ضدَّ الطُّغيانِ

فائدةُ القولِ هو معنى منطوقِه المذكورِ، ولازمُ الفائدةِ هنا إثباتُ رسالةِ رسولِ اللّهِ محمَّدٍ ﷺ؛ لأنَّهم إنَّما قالوا ذلك سرًّا فيما بينهم، فأطْلَعَ اللّهُ رسولَهُ على ذلكَ؛ ليعلمَ أنَّهُ عرفَ ذلك باللّهِ[2]، "والإشارةُ بقولِه تعالى: (هؤلاء) إلى المسلمينَ، وإنَّما قالوا هذا؛ لأنَّهم رأوا قلَّةَ المسلمين، فلم يشكّوا في أنَّ قريشًا تَغلبُهم"[3].

دلالةُ الفعلِ المضارعِ في قولِه: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾:

تفيدُ صيغةُ المضارعِ تَجَدُّدَ بشاعةِ قولِهم معَ الاستمرارِ والاستحضارِ

لمّا كانَ ظرفُ الزَّمانِ (إذْ)، لِما مضى، فيقترنُ في الأصلِ بالفعل الماضي، لفظًا أو معنًى، كانَ التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ هنا؛ للإشعارِ بأنَّ قولَهم كان متَّصِلًا بالزَّمنِ الماضي مع استمرارِه وتجدُّدِه كلَّ

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 5/237.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 5/237.
(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/217.

وقتٍ، لما لهم فيهِ من الرَّغبةِ[1]، وأنَّ هذا كان شأنَهم وديدنَهم، كما يفيدُ التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ استحضارَ صورةِ قولِهم البشعةِ.

دلالةُ القولِ بين الحقيقةِ والمجازِ:

التَّعبيرُ بلسانِ الحالِ مجازٌ يبيِّنُ بلاغةَ الإعجازِ

القولُ هنا مستعملٌ في حقيقتهِ ومجازِهِ، فالمنافقونَ يقولونَ ذلك حقيقةً بألسنتِهم، أمامَ أمثالِهم من المنافقينَ، والَّذين في قلوبِهم مرضٌ، يقولون ذلك في أنفسِهم، وبلسانِ حالِهم من خلالِ تعاملِهم مع المؤمنينَ[2]، وما يقالُ بلسانِ الحالِ، لا يكونُ إلّا مجازًا، والتَّعبيرُ بالمجازِ لا يقلُّ أهمّيَّةً عن التَّعبيرِ بالحقيقةِ، وهو من مأنوس الاستعمالِ المتوخَّى عادةً في مثلِ هذه الأحوال.

مناسبةُ العطفِ في: ﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾:

العطفُ يقتضي التَّغايرَ بالذّاتِ أو بالوصفِ

لمّا كانَ العطفُ يقتضي المغايرةَ بين المعاطيف؛ دلَّ هنا في قولهِ: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ على تغايرِ المعطوفين، فإمّا أن يكونَ بتغايرِ الذّاتين، أي: التَّغايرُ بالشَّخصِ، فيكونُ المرادُ من المنافقينَ الَّذين أظهروا الإيمانَ، وأبطنوا الكفرَ، والمرادُ من ﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ الَّذين لم يطمئنّوا إلى الإيمانِ بعدُ، وبقيتْ في قلوبِهم شبهةٌ، فليسوا بثابتي الأقدامِ في الإسلام، وإمّا أن يكونَ بتغايرِ الوصفين، فيكونُ واحدًا بالشَّخصِ، وله وصفان، فكشفَهما اللّهُ تعالى، والمعنى: وإذ يقولُ الَّذين جمعوا بين الوصفين: النِّفاقِ والشَّكِّ في الإيمانِ، ووردَ هذا الوجهُ في القرآنِ الكريم، حينَ ذكرَ اللّهُ المؤمنينَ بوصفين في قولهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: 3]، ثمَّ قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: 4]، وهما واحدٌ، ويحتملُ أن يكونَ من عطف العامِّ على الخاصِّ، تأكيدًا وتقريرًا لكشفِ ما يقوله المنافقونَ، فإنَّ من في قلبهِ مرضٌ، أعمُّ من المنافق،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/299.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/38.

والمَرَضُ أعَمُّ مِنَ النِّفاقِ؛ إذْ يُطْلَقُ مَرَضُ القلبِ على الكفرِ، وعلى الاعتراضِ الَّذي فيه شبهةٌ وعلى ما بينهما[1].

دلالةُ الموصولِ وصلتِهِ:

النِّفاقُ ومرضُ القلبِ، سببانِ لـلاستهزاءِ بالمسلمين

في قولِه تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، عُدِلَ عنِ التَّصريحِ بالاسمِ، ولم يقل: (ويقول أهلُ النِّفاقِ ومرضى القلوب)، فذُكِرَ الصِّنفانِ عن طريق الموصولِ وصلتِه، لما تشعرُ بِهِ جملةُ الصِّلةِ، من معنى مفهومٍ عندَ المخاطبينَ، فإنَّ لفظَ ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ بتقديرِ الَّذين ينافقونَ، لِما تدلُّ عليهِ (أل) المقترنة بالوصفِ على الموصوليَّةِ، ووجهُ مجيءِ الموصولِ وصلتِهِ في الموضعين، هو الإيماءُ إلى وجهِ بناءِ قولِهم الَّذي قالوه، وأنَّ سببه هو نفاقُهم، وما في قلوبِهم من المرضِ والشُّبهة، كما أنَّ فيه زيادةَ تقريرٍ لنفاقِ الصِّنفِ الأوَّلِ، ومرضِ قلوبِ الصِّنفِ الثّاني، وفيه كذلك تعريضٌ بإهانتِهم لوصفِهم بهذين الوصفين[2].

بلاغةُ تقديمِ المسندِ على المسندِ إليه:

مرضُ الشُّبهاتِ أشدُّ فتكًا من مرضِ الشَّهواتِ

في قوله تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، قُدِّم المسندُ ﴿فِى قُلُوبِهِم﴾ على المسندِ إليهِ ﴿مَّرَضٌ﴾ للاهتمام؛ لأنَّ القلوبَ هي محلُّ الشُّبهةِ والشَّكِّ، فلما كانَ المسؤولُ عنهُ، هو متعلَّقُها، كان هو المهتمَّ بهِ في الكلامِ، والمعنى: "الَّذين لم تطمئنَّ قلوبُهم بالإيمانِ بعدُ، وبقيَ فيها نوعُ شبهةٍ، وقيل: هم المشركونَ، وقيل: هم المنافقونَ في المدينة"[3].

(1) مكي بن أبي طالب، الهداية: 4/2846، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/228، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/539، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/63، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/335، وابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/104.

(2) السّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 184.

(3) مكّي بن أبي طالب، الهداية: 4/2846، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/228، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/539، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/63، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/335، وابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/104.

بلاغةُ تنكيرِ لفظِ ﴿مَّرَضٌ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، أفادَ التَّنكيرُ تعظيمَ المرضِ الَّذي في صدورِهم، وتهويلِه، فكانَ منهُ صدورُ قولِهم الَّذي قالوه، فأمّا ﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، ففيهم ثلاثةُ أقوالٍ: "أحدُها: أنَّهم قومٌ كانوا قد تكلَّموا بالإسلامِ بمكَّةَ، فأخرجَهم المشركونَ معهم يومَ بدرٍ كُرهًا، فلمّا رأوا قلَّةَ المسلمين، وكثرةَ المشركين، ارتابوا ونافقوا. والثّاني: أنَّهم المشركونَ، لمّا رأوا قلَّة المسلمين، قالوا: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡ﴾. والثّالث: أنَّهم قومٌ مرتابونَ، لم يظهروا عداوةَ النَّبيِّ ﷺ"[1]، وأيًّا كان المعنى من الثَّلاثةِ، فإنَّ التَّنكيرَ، يبقى له أثرُهُ في تبريزِ تعظيمِ المرضِ وتبشيعِه.

مَـرضَى القـلـوبِ خطرٌ على الأمَّةِ في الـظُّـروفِ المدلهمَّةِ

بلاغةُ المجازِ:

في قولِه تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، عبَّرَ بذكرِ القلوبِ عن معتقدِهم الفاسدِ؛ إذ القلوبُ محلُّهُ، فإنَّهُ لمّا كان معلومًا بالخبَرِ عن مرضِ القلبِ، أنَّه معنيٌّ به مرضُ ما هم معتقدوه من الاعتقادِ الفاسدِ، استغنى بالخبَرِ عن القلبِ بذلك، والكفايةُ عن تصريحِ الخبَرِ عن ضمائرِهم، واعتقاداتِهم، فاجتزأ بدلالةِ الخبَرِ عن قلوبِهم على معناهُ عن تصريحِ الخبرِ عن اعتقادِهم ليلزمَ منهُ شكُّهم في دينِهم[2].

دلالـةُ الخبرِ عن قلوبِهم مجزئٌ عـن الـتَّـصـريـحِ باعتقادِهم

أثرُ التَّعبيرِ بالمجازِ في قولِه: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾:

لمّا كان المرضُ حقيقةً، هو فيما يعرضُ للبدنِ، فيخرجهُ عن الاعتدالِ الخاصِّ بهِ، ويوجبُ الخللَ في أفعالِه؛ عُبِّرَ به هنا على طريقِ المجازِ بمعنى: الشَّكِّ أو ضعفِ الإيمانِ أو سوءِ الاعتقادِ، ممّا هو فسادٌ وآفةٌ شبيهةٌ بالمرضِ، للإيذانِ بأنَّ الصِّحَّة في الإيمانِ باللهِ وبرسولِه،

المـــــرضُ في الـقـلـوبِ شَـكٌّ في الاعـتـقـادِ، وضـــعـــفٌ في الدّينِ

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/217.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 1/279، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/539.

وفي عبادتهِ سبحانه والامتثالِ لأوامرهِ، واجتنابِ نواهيهِ، وأنَّ المرضَ في ما هم فيه من الشُّبهةِ والشَّكِّ، وسوءِ الاعتقاد، وسوءِ الأعمالِ، وأنَ شكَّهم يزيدُ كما يزيدُ المرض[1]، كما أفادَ التَّعبيرُ بالمرضِ أنَّه صار وصفًا قارًّا، كما أنَّه إذا أصابَ القلبَ، تأثَّر بهِ الجسدُ كلُّهُ، وفيه كذلك إشعارٌ بسوءِ عاقبةِ شكِّهم عليهِم، كما أنَّ المرضَ كذلكَ.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ:

في قولهِ تعالى: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ﴾، لفظُ (غرَّ) هنا مستعارٌ؛ إذ شبَّهَ المنافقونَ والَّذين في قلوبهم مرضٌ: الدّينَ - وهو الإسلامُ - بالغرر، أي: في مظهرٍ محبوب، وهو في العاقبةِ مكروهٌ، كما أنَّ في قولِهم تعريضًا بالمسلمينَ، أنَّهم مغفَّلونَ منخدِعونَ بالإسلامِ، لاغترارِهم بهِ، لتشويهِ الحقيقةِ، وليبثّوا روحَ الانهزامِ والفرارِ في قلوب المسلمين، فيضعفوا عند ملاقاةِ المشركين، أو يرجعوا، فلا يقاتلوا، وإسنادُهم فعلَ الغرورِ إلى الدّين، باعتبارِ ما في القرآنِ من الوعدِ بالنَّصرِ، أي: غرَّهم ذلك، فخرجوا، وهم عددٌ قليلٌ، للقاءِ جيشٍ كثيرٍ، والمعنى: إذ يقولونَ ذلك عند اللِّقاءِ، وقبل حصولِ النَّصرِ، فإطلاقُ الغرورِ هنا استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ، وإسنادهُ إلى الدّين حقيقةٌ عقليَّةٌ[2].

لا تزيدُ أقاويلُ الباطلِ المؤمنينَ إلّا رسوخًا وثباتًا

دلالةُ اسمِ الإشارةِ:

في قولهِ تعالى: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ﴾، عُبِّرَ باسمِ الإشارةِ، ولم يُذكرِ المسلمونَ بوصفِ الإسلامِ؛ لأنَّ المنافقينَ - ومن معهم - قصدوا كمالَ العنايةِ بتمييزِ المسلمين - الَّذين قالوا فيهم هذه المقولةَ - أكملَ تمييزٍ، وجاءَ على صيغةِ القريبِ؛ لأنَّهم قصدوا تحقيرَهم لقلَّتِهم، واسترذالَهم لضعفِهم.

مَـن أعـزَّهُ اللهُ بـنـصـرِه، لا يضرُّهُ تطاولٌ ولا استحقارٌ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/59، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/45.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/38.

فائدةُ تقديمِ المفعولِ على الفاعلِ:

في قولِه تعالى: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ﴾، قُدِّمَ المفعولُ به ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ على الفاعل ﴿دِينُهُمۡۗ﴾؛ لتخصيصِهم بالاغترارِ بدينِهم، وللاهتمامِ بهم؛ لأنَّهم هم المقصودونَ في الكلامِ، ولم يَدُرْ في خَلَدِ هؤلاءِ المغرورين أنَّ هذه الفئةَ القليلةَ، سوف تستأصلُ شأفتَهم، وتذيقُهم مرارةَ الهزيمةِ والاندحارِ.

مَـن تكُـنْ باللهِ نـصـرتُـهُ؛ فلا غالبَ لهُ بقولٍ ولا قتالٍ

دلالةُ الإضافةِ في لفظِ ﴿دِينُهُمۡۗ﴾:

في قوله تعالى: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ﴾، أفادتِ الإضافةُ هنا تخصيصَ الدّين الَّذي يدينُ به المسلمونَ بهم، أي: إنَّه ملَّةٌ خاصَّةٌ بهم، ففيه إشعارٌ بأنَّهم لا يدينونَ بالإسلامِ، أو هم في شَكٍّ منه، وديدنُ المشكِّكين أن ينفوا عن هذا الدّينِ صدقيَّتَهُ، ويكونُ ذلك التَّكذيبُ مطعنًا في أهلِه واعتقادِهم حتَّى يسهلَ عليهم نسفُ الحقائقِ، والإقناع بالأباطيل.

محاربةُ الدّينِ بالقولِ والفعلِ ضلالةٌ وسوءُ تقديرٍ

دلالةُ قولِه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾:

وردتْ هذهِ الجملةُ استئنافًا على طريقِ الإخبارِ؛ لتكونَ جوابًا لهم من جهتِه تعالى، وردًّا لمقالتِهم[1]، فإنَّهُ تعالى كما أخبرَ عنهم بقولِهم الَّذي قالوهُ، أخبرَ عن جوابِه ورَدِّه على مقالتِهم، فهي من جملةِ الأخبارِ المسوقةِ لبيانِ عنايةِ اللهِ تعالى بالمسلمين، وللامتنانِ عليهم، فالمناسبةُ بينها وبين الجملةِ الَّتي قبلها: أنَّ الاستئنافَ فيها بمنزلةِ العلَّةِ لخيبةِ ظنونِ المنافقين ونصرائِهم، أي: إنَّ اللهَ خيَّبَ ظنونهم، فالمسلمون يتوكَّلونَ على اللهِ، في لِقاءِ عَدوِّهم، وليسوا مغترّينَ بدينِهم، كما قالوا عنهم[2].

دَأْبُ المسلمينَ التَّوكُّلُ على اللهِ لا الغرورُ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/228، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/63، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/26.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/336، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/38.

بلاغةُ الجملةِ الشَّرطيَّةِ في قولِهِ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾:

أفـاد الأسـلـوبُ الشَّرطيّ إرادةَ الـعـمـومِ، لتذهبَ النَّفسُ في تـقـديـرِهِ كـلَّ مذهبٍ

لمّا كان الشَّرطُ على معنى تعليقِ الجوابِ بالشَّرطِ، وكانَ الجوابُ هنا محذوفًا؛ إذ ذكرَ الملزومَ وأرادَ اللّازمَ، وهو عزَّةُ المتوكِّل على الله، وإلفائِهِ منجيًا من مضيقِ أمرِهِ، فهو كنايةٌ عنِ الجوابِ، وليسَ الجوابَ، وهو من وجوهِ البيانِ، وكثيرُ الوقوعِ في القرآن[1]؛ ومناسبةُ ذكرِ الملزومِ، وإرادة اللّازمِ انتفاءُ الملازمةِ بينهما بوعدِ اللهِ الَّذي لا يتخلَّفُ، كما أنَّه يفيدُ العمومَ؛ لتذهب النَّفسُ فيه كلَّ مذهبٍ في التَّقديرِ، فلمّا كانَ الأمرُ كذلك؛ دلَّ على مناسبتِه كلّ ظرفٍ يقتضيهِ مقامُ المخاطبين، ويدخلُ فيه المسلمونَ الَّذين قاتلوا المشركينَ بتوكُّلهم على اللهِ في قتالِهم، دخولًا أوَّليًّا، فكانَ الجزاءُ عزَّةَ المسلمينَ ونصرَهم على عدوِّهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ:

الـحـثُّ عـلى استمرارِ التَّوكُّلِ وتـجـدُّدِه، بعمومِ الأزمنةِ والأمكنةِ

في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾، أفادَ التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ الحثَّ على استمرارِ التَّوكُّلِ على اللهِ، وتجدُّدِه بعمومِ الأزمنةِ والأمكنةِ؛ لأنَّ سياقَ ورودِ الجملةِ كانَ للدَّلالةِ على أنَّ المسلمينَ، توكَّلوا على اللهِ في وقتِ قتالِهم المشركينَ يومَ بدرٍ، وفي ذلك المكانِ، فلمّا حذف متعلَّق الفعلِ؛ دلَّ على العمومِ.

فائدةُ تخصيصِ التَّوكُّلِ بقولِهِ: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾:

تحصيلُ الجزاءِ الأوفى، مرتبطٌ بالتَّوكُّلِ على اللهِ الأعلى

لمّا جاءَ فعلُ الشَّرطِ ومتعلَّقُهُ (على الله)، في سياقِ الشَّرطِ، وكان الشَّرطُ قيدًا للجملة؛ دلَّ على تخصيصِ أن يكونَ التَّوكُّلُ على اللهِ وحدَهُ، لا على غيرِه، ولمّا كان الجزاءُ على معنى اقترانِه بالشَّرطِ؛ دلَّ على أنَّه لا يتحقَّق إلّا بحصولِ الشَّرطِ، أي: التَّوكُّل على اللهِ وحدَهُ، لا على غيرِه، والمعنى من يتوكَّل على اللهِ وحدَهُ دونَ غيرِه، فإنَّ الجزاءَ واقعٌ وهو ثابتٌ لا يتغيَّرُ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/27، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/39.

دلالةُ مجيءِ الجملةِ الفعليَّةِ خبرًا لأداةِ الشَّرطِ:

مَـن تـوكَّـلَ على الـلـهِ؛ حـمـاه المولى، وكانَ بها أولى

في قولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ﴾، أفادَ مجيءُ الجملةِ الفعليَّةِ ﴿يَتَوَكَّلْ﴾، خبرًا تقوّي حُكْمَ مضمونِ الجملةِ بنفسِ التَّركيبِ، لعظمِ الشَّرطِ والجزاءِ، ففيهِ معنى التَّقريرِ والتَّأكيد[1]، وقد "أخبرَ اللهُ ﷻ بأنَّ من توكَّلَ على اللهِ، واستندَ إليهِ، فإنَّ عزَّةَ اللهِ تعالى وحكمتَهُ، كفيلةٌ بنصرِهِ، وشدِّ أعضادِه"[2].

دلالةُ (الفاء) في قولِهِ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾:

مـن تـوكَّـلَ على اللهِ؛ اطمأنَّ إلى كنفِهِ وحمايَهُ

أفادتِ الفاءُ الواقعةُ في جوابِ الشَّرطِ في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، اقترانَ الجزاءِ بالشَّرطِ، بأن يكونَ عقبَهُ من غيرِ مهلةٍ، وفي ذلك ترهيبٌ بعزَّةِ اللهِ لمن لم يتوكَّلْ على اللهِ، وتذكيرٌ بحكمتِهِ لمن توكَّلَ عليهِ، وأسلمَ له القيادَ، وعلم أنَّهُ الملجأُ في الكروبِ، والمنجى عند احتدامِ الخطوبِ.

تتابعُ التَّأكيدِ:

دلالـةُ المؤكِّـداتِ على إبراز النَّصرِ لـلـمـؤمـنـين، وتأكـيـدِ الخيبةِ للكافرين

في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، جاءَ تأكيدُ جملةِ الجزاءِ بتأكيدين، هما الأداةُ (إنَّ)، ومجيءُ الجملةِ اسميَّةً، دالَّةً على ثبوتِ اتِّصافِ اللهِ بالوصفين الجليلين، فيفيدُ التَّأكيدُ زيادةً في تقريرِ مضمونِ الجملةِ: للمؤمنين، فيستبشرون، وللكافرين فيعلمون أنَّ اللهَ ناصرُ المؤمنينَ، فيخيبونَ.

مناسبةُ مجيءِ الكلامِ على خلافِ مقتضى الظّاهرِ:

لإظـهـارِ اسـمِ الـجـلالـةِ من الـتَّـفـخـيـمِ والتَّعظيمِ، ما ليس للضَّميرِ

كان الظّاهرُ أن يقولَ: (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ على اللهِ فإنَّهُ عَزيزٌ حَكيمٌ)، لقربِ ذكرِ الاسمِ الجليلِ، فعدلَ عن الكلامِ بوضعِ الظّاهرِ موضعَ المضمرِ، لتربيةِ المهابةِ بتقريرِ ذكرِ الاسمِ الجليلِ، ولزيادةِ تمكينِه، أي: تقريرِه، وتثبيتِه في ذهنِ السّامعِ حتَّى يكونَ مستحضرًا لا يزولُ

(1) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 217.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/539.

عن البالِ؛ لأنَّ في إظهارِ الاسمِ الجليلِ من التَّفخيمِ والتَّعظيمِ ما ليس في الضَّميرِ، والمقامِ يقتضيه، لتقويةِ داعيةِ التَّوكُّلِ على اللهِ تعالى[1].

حسنُ التَّذييلِ:

بـلاغـةُ جـريـانِ الجملةِ مجرى المثلِ في التَّوكُّلِ على اللهِ

في قولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، أفادتْ جملةُ التَّذييلِ أنَّه لمّا كانت جملةُ الشَّرطِ على معنى العمومِ، لشمولِ اسمِ الشَّرطِ (من) كلَّ العقلاءِ ولِعمومِ الجزاءِ - كما تقدَّمَ - دلَّ على أنَّها بمنزلةِ المثلِ في جريانِها في الكلامِ، لتشملَ كلَّ من يتوكَّلُ على اللهِ في أعمالِه، وأنَّ فيها حثًّا للمؤمنين جميعًا على التَّوكُّلِ على اللهِ، لِما ذكره من عظمِ الجزاءِ الذي لا يتخلَّفُ.

مناسبةُ مجيءِ وصفي ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ في الآيةِ:

مـن تـوكَّـلَ على اللهِ وإنْ ضعفَ؛ لا يغالبُ بقوَّةٍ وإن عظمت

لمّا جاءَ الكلامُ في سياقِ قتالِ الفئةِ المؤمنةِ القليلةِ العددِ والعدَّةِ، للفئةِ الكافرةِ الكثيرةِ العددِ والعدَّةِ، وكان الشَّرطُ في بيانِ جزاءِ الَّذي يتوكَّلُ على اللهِ؛ ناسبهُ ذكرُ الوصفين (عزيزٌ حكيمٌ) في الجزاءِ، فاللهُ تعالى عَزيزٌ غالبٌ، لا يذلُّ من توكَّل عليه، واستجارَ به، وإنْ قلَّ، ولا يغالبُ بقوَّةٍ وإن كثرت، فمن تمسَّكَ بالاعتمادِ عليه نصرَهُ؛ لأنَّهُ حَكيمٌ، يفعل بحكمتِه البالغةِ، ما تستبعدُهُ العقولُ، وتحار في فهمه ألبابُ الفحولِ، ويَضَعُ الأشْياءَ مَواضِعَها، ويضعُ أسبابَ النَّصرِ من حيثُ يجهلُها البشرُ، كما أنَّ حكمتَهُ تقتضي نصرَ أوليائِه[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المنافقون، والذين في قلوبهم مرض:

النِّـفـاقُ إبـطـانُ الـكـفـرِ وإظـهـارُ الإسلامِ، والمرضُ اختلالٌ في صحة الإنسانِ

وردَ ذكرُ المرضِ مقرونًا بالنِّفاقِ، ووردَ منفردًا، فقالَ تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ

(1) البهاء السبكي، عروس الأفراح: 1/266 - 267.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/63، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/336، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/27، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/38.

إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ [الأحزاب: 12]، وقال تعالى: ﴿۞لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ [الأحزاب: 60]، وقال تعالى حكايةً عن المنافقين: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ [البقرة: 10]، وقال: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة: 52]، وقال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ [التوبة: 125]، ومجيءُ المرضِ معطوفًا على النِّفاق، يقتضي تغايرهُ، فالنِّفاقُ: هو إبطانُ الكفرِ وإظهارُ الإسلامِ، والمرضُ: هو الخروجُ عن الاعتدالِ الخاصِّ بالإنسانِ، وهو نوعانِ: أحدُهما: جسميٌّ، وهو فتورُ الأعضاءِ، بأن يكونَ فيها خللٌ، وهو المذكورُ في قولهِ تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [النّور: 61]، والثّاني: عبارةٌ عن الرَّذائلِ كالجهلِ، والجبنِ، والبخلِ، والنِّفاقِ، وغيرها من الرَّذائلِ الخُلقيَّةِ، نحو قوله: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ﴾ [البقرة: 10]، ويشبِّهُ النِّفاقَ والكفرَ وحبَّ الفاحشةِ والسَّيرَ وراءها، ونحو ذلك مِنَ الرَّذائلِ: بالمرضِ؛ لأنَّ المرضَ أعمُّ منها من حيثُ المعنى، وأيضًا إمّا لكونِها مانعةً عن إدراكِ الفضائلِ، كالمرضِ المانعِ للبدنِ عن التَّصرُّفِ الكاملِ، وإمّا لكونِها مانعةً عن تحصيلِ الحياةِ الأخرويَّةِ المذكورةِ في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ [العنكبوت: 64]، وإمّا لميلِ النَّفسِ بها إلى الاعتقاداتِ الرَّديئةِ، كميلِ البدنِ المريضِ إلى الأشياءِ المضرَّةِ[1]، ويقالُ: أصلُ المرضِ الفتورُ، فهو في القلبِ فتورٌ عن الحقِّ، وفي الأبدانِ فتورُ الأعضاءِ، وفي العيونِ فتورُ النَّظرِ[2]، واستُعمِلَ المرضُ في القرآنِ بمعنى الكفرِ والنِّفاقِ، والشَّكِّ والرِّيبةِ، وضعفِ الجسدِ، وضعفِ الإيمانِ، والشَّهوةِ والميلِ إلى النِّساءِ، والسِّياقُ هو الذي يعيِّنُ المرادَ.

(1) الرّاغب، المفردات: (مرض).

(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 4/85، وابن الهائم، التّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 50.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 16 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-12-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 16 : المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-12-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9828150 بتاريخ 2024/01/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»